



هذه ليست مجرد مبارزة بين فلاديمير بوتين وأبو بكر البغدادي. ليست مجرد محاولة للاحتفاظ بوجود عسكري على شاطئ المتوسط. ليست مجرد عملية تتعلق بحسابات النفط والغاز والأتابيب والممرات. إنها أكبر. إنها أخطر. هل ترانا نبالغ إذا قلنا إن التدخل العسكري الروسي في سوريا بذيله الإقليمية والدولية أخطر من هجمات 11 أيلول (سبتمبر).

وإن إطلالة بوتين الجديدة عبر الصواريخ التي أطلقتها البوارج الروسية من بحر قزوين لا تقل خطورة عن إطلالة البغدادي من الموصل. وإن ما ألحقه صواريخ البوارج بصورة أميركا في المنطقة والعالم لا يقل عما ألحقه طائرات بن لادن بالبرجتين. ففي الهجمتين كانت هيبة أميركا هي الهدف الأول حتى ولو تغطى الهجوم الروسي بلافتات أخرى.

من المبكر المسارعة إلى عقد المقارنات بين قرار جورج بوش الذهاب إلى الحرب ردًا على جرح نيويورك وقرار بوتين الذهاب إلى الحرب دفاعاً عن مصالح بلاده وصورتها وسعيه إلى تعزيز موقعها. لم نصل بعد إلى تلك المرحلة. وأغلب الظن أن بوتين لا يريد تكرار خطأ بريجنيف في أفغانستان وخطأ بوش في العراق. لكن التجارب تقول إن أرض المعركة قد تفاجئ أربع الجنرالات وما ديجوه على الخرائط في غرف العمليات.

حين أعلن البغدادي «دولة الخلافة» لم يتوقع أن تنهر عليه باقات الورود والتهاني وأن يتتسابق السفراء لتقديم أوراق اعتمادهم.

كان يعرف أن دولته انتحارية. وأن إعلانها على أجزاء من خريطيتين يشكل أوسع عملية انتحارية في التاريخ المعاصر. يرجع أن البغدادي حلم بما تعذر على أسامة تحقيقه وهو استدراج الآلة العسكرية الأمريكية إلى مكان يتعذر فيه الانتصار واستنزافها ثم إرغامها على المغادرة مثخنة كما حل بـ«الجيش الأحمر» السوفياتي.

اعتبر بوتين المحنّة السورية فرصة كبرى لاستنزاف هيبة أمريكا. شهر سيف الفيتو في مجلس الأمن. لن يسمح بتكرار ما يعتبره «الخدعية الليبية».

أصيب الرئيس الأميركي المتعدد بهاجس الابتعاد عن النار السورية. حين يطالب رئيس القوة العظمى الوحيدة رئيساً أن يرحل ولا يملك إرادة إرغامه وحين يضع «خطاً أحمر» ويتجاوزه المستهدف، يخسر صاحب الإنذار سريعاً معركة الهيبة والصورة. خدعة القيصر في محطة مفصلية.

حين اكتفى أوباما بنزع السلاح الكيماوي من يد النظام السوري من دون اشتراط أن يتضمن الحل إطلاق مرحلة انتقالية سلّم عملياً ببقاء النظام.

وحين يوافق أوباما على معاملة إيران وكأنها دولة كبرى في مفاوضات الاتفاق النووي، لماذا لا تتقدم روسيا للثأر من الإذلال الأميركي الطويل لموقعها وأسلحتها.

بدا الرئيس الأميركي المتعدد مربكاً لحلفائه وحليفاً لأعدائه. قرأ بوتين المشهد الدولي والإقليمي وسدّد ضربته. لا يريد أوباما إنهاء إقامته في البيت الأبيض مستقبلاً جثث الجنود العائدة من الشرق الأوسط. أربع سنوات من الحرب في سورية أظهرت حدود الدور الإيراني وطابعه غير الحاسم.

تركيا انزلقت إلى حرب على أراضيها والإرهاب نقل النار إلى الدار. وسلوك تركيا أقل بكثير من تهديدات سلطانها.

السعودية منشغلة بحربها في اليمن وروسيا بادرتها بسلوك إيجابي في مجلس الأمن. أما أوروبا فمرتبكة بأمواج اللاجئين المرشحة للازدياد. سدد بوتين ضربته.

المسألة أكبر من إنهاء البغدادي ودولته. وأكبر من تحديد مصير الرئيس بشار الأسد ونظامه. وأكبر من تحويل الهلال الإيراني هلاماً روسيّاً - إيرانياً.

إنها عملية انقلاب واسع على التوازنات التي قامت على ركام الإمبراطورية السوفياتية.

إنها عملية ثأر من أميركا التي انتزعت لقب القوة العظمى الوحيدة من دون أن تطلق رصاصاً. وثأر من حلف الأطلسي الذي حرك بيادقه في اتجاه حدود الاتحاد الروسي. ثأر من سياسة التأديب والعقوبات والثورات الملونة والمجتمع المدني.

ليست مجرد معركة في سورية. وليس مجرد معركة على سورية. إنها معركة تسديد حسابات تؤثر نتائجها على ميزان القوى الدولي وملامح الشرق الأوسط ودوله وخراطته وأقلياته. يستطيع بوتين تعديل ميزان القوى على الأرض لمصلحة النظام.

الجسم الكامل متذرع وباهظ. يقدم سريعاً تصوراً لحل شبه مقنع أو يغرق تدخله في «سورستان». لم يترك لخصومه خيارات كثيرة. سيتدفق السلاح والمقاتلون. وسيتردد صدى المعارك لدى مسلمي الاتحاد الروسي وجواره. سورية فرصة

الثار قد تحول سريعاً سورياً المستنقع التي تهدد باستنزاف القيصر وبلاده.

الشرق الأوسط في أحلك أيامه. دول خائفة. وخرائط قلقة. أكثرية متوجسة. وأقليات مذعورة. دولة الرئيسية تتعرض لاستنزاف غير مسبوق يعني سلامتها ودورها واستقرارها. تحارب خارج حدودها أو داخلها.

وسط بحيرات الدم أطل القيصر وسد ضربته. بين المغامر والمقامر خيط رفيع. يفرض سريعاً حلاً شبه معقول في سوريا أو يغرق مع البغدادي في «سورستان».

الحياة اللندنية

المصادر: